أساليب مقاومة الطرق الصوفية للاستعمار الفرنسي في بداية القرن العشرين (الطريقة العلوية نموذجا) مقاربة سوسيو تاريخية.

د. بكاي رشيد

جامعة بالاغواط – الجزائر

الملخص:

لعبت الطرق الصوفية والزّوايا ،دوراً إيجابياً طيلة القرن 19م، حيث حملت لواء مقاومة الاستعمار الفرنسي بداية من الأمير عبد القادر ونهاية بمقاومة الاوراس في بداية القرن العشرين، ولكي تتجنب الإدارة الاستعمارية قيام هذه الطرق والزّوايا بمقاومات أخرى ،لجأت إلى دراستها من كل الجوانب والبحث عن نقاط قوتها وضعفها، ثم استغلال ذلك في رسم سياسة إضعافها وتدجينها[1]، وتعد دراسات وتوصيات كل من لويس رين في كتابه "مرابطون وإخوان"عام 1884، ثم دراسة أوكتان ديبون وأكزافييه كوبولاني المعنونة بـ " الطرق الصوفية في الجزائر"عام 1897م، من أهم الدراسات التّي أخذتها هذه الإدارة الاستعمارية بعين الاعتبار في وضع سياستها اتجاه هذه الطرق الصوفية والزّوايا،وقد أتت هذه السياسة الاستعمارية أكلها بعد عقدين من الزمن.

Abstract:

played Sufi and angles, a positive role throughout the 19th century AD, which carried the banner of resistance to French colonialism beginning of Emir Abdelkader and the end of Sheikh Bouamama, and to the colonial administration avoids do these methods and angles other by opponents, resorted to the study of all aspects and the search for its strengths and weaknesses , and then use that to draw a weakened and domesticated policy[1], and longer studies and recommendations of each of Luis Rehn in his book "Fighters and Brotherhood" in 1884, then octane Dupont study and Xavier Kopoulana titled "Sufi orders in Algeria" in 1897, of the most important studies that have taken This colonial administration into account in the development of this policy direction of the Sufi orders and angles, was this colonial policy paid off after two decades.

مقدمة :

دب الضعف في الطرق والزّوايا منذ بدايات القرن 20م، وأصبح موقفها سلبياً اتجاه الاستعمار، كما ضعف تأثيرها في المجتمع، دون إغفال دورها الإيجابي في الحفاظ على الدين واللغة، ويعود هذا الضعف إلى عدة عوامل منها:

– السياسة الاستعمارية الجديدة اتجاهها مما سمح بتدجينها، والتّي بنيت على دراسات علمية، قام بها الكثير من الباحثين.

– هجرة الكثير من سكان الأرياف إلى المدن وإلى فرنسا، بعد الحرب العالمية الأولى خاصة وأنّ الريف كان يعتبر معقلا لنفوذها وتأثيراتها.

– دعاية بعض المهاجرين الذين عادوا من المشرق الإسلامي، بأفكارهم التجديدية والإصلاحية

– ظهور بعض خريجي المدرسة الفرنسية، وسعيهم لنشر بعض الأفكار الوضعية في المجتمع.

– موقف بعض هذه الطرق والزّوايا المؤيد لفرنسا ضد الدولة العثمانية، أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي كان وراء فقدان الكثير من تأثيراتها في المجتمع الجزائري، الذّي كان في أغلبيته متعاطفا مع الخليفة العثماني المسلم.

و تعتبر الطريقة العلوية في بداية القرن العشرين ، من الطرق الصوفية التي جددت خطابها وأساليبها ، في مقاومة الاستعمار الفرنسي تماشيا وظهور الحركة الوطنية بكل تياراتها،فأنتجت هذه الطريقة العصرية ماسمي بوسائل المقاومة السياسية والثقافية.

فماهي إسهامات الطريقة العلوية في مجال النضال السياسي والثقافي المقاوم للاستعمار الفرنسي؟ وهل كان لخطابها ونهجها الإصلاحي الذي تبنته تأثير على الساحة السياسية والثقافية في ذلك الوقت؟

1– الطريقة العلوية وموقعها من خطاب الحركة الوطنية في بداية القرن العشرين :

فرضت هذه الظروف الجديدة على الطرق الصوفية والزّوايا، إما مسايرة العصر أو الاضمحلال، فقد دعا محمد سعيد بن زكري إلى إصلاح الزّوايا منذ بدايات القرن 20م، وذلك من خلال كتابه "إصلاح الزوايا في بلاد القبائل"[2] ، لكّن دعوته تلك لم تجد آذاناً صاغية إلاّ بعد عقدين من الزمن ،عندما حاول أحمد بن مصطفى بن عليوة شيخ الطريقة العليوية بمستغانم تحديث الطريقة التي أنشأها عام 1921 بعد استقلاله عن الطريقة الشاذلية، مما جعل البعض يلقبونه بـ" الطرقي الحديث أو المعصّرن"[3].

كانت بدايات الطريقة العليوية ذات طابع إصلاحي، لا تختلف كثيرا عن النزعة الباديسية ،فما فتئت جريدتها "**لسان الدين**" منذ ظهورها تتأسف على تردي الأوضاع الدينية في الجزائر، وتدعوا إلى الإصلاح الديني، فاقترحت عام 1923م، إنشاء تنظيم جزائري يتكفل بهذه المهمة، وكان ذلك في عام 1923، أي قبل ظهور فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ببضع سنوات، وقد كتبت هذه الجريدة في آخر عدد لها قائلة:"إن تشكيل حزب ديني يتخلل فروعه سائر القطر يتألف من رجال مخلصين في أعمالهم، صادقين في أقوالهم يبذلون في سبيل تأييد مشروعهم، النفس والنفيس خطتهم في ذلك المناضلة عن الدين والمحافظة على المروءة..."[4].

لكن هذه الطريقة تراجعت نوعا ما عن نزعتها الإصلاحية بعد اصطدامها بابن باديس وجماعته، فأصبحت خصماً لهم، خاصة بعد اتهام أنصار ابن باديس لبن عليوة بمحاولة اغتيال بن باديس عام 1926 [5]، ومهما كان الأمر فإنّ الطريقة العليوية كانت عصرية في أساليبها طيلة الفترة الاستعمارية، فقد أنشأت مطبعةلها بمستغانم، والتّي نشرت بعض الكتب الفلسفية والصوفية لبن عليوة، كما أصدرت جريدة "**البلاغ الجزائري**"عام 1925، والتي اهتمت بقضايا دينية وصوفية وحتّى فكرية في بعض الأحيان، وخاصة نشرها لمقالات بن عليوة الفلسفية والتّي جمعت في كتاب " الأبحاث العليوية في الفلسفة الإسلامية"[6].

وبعد وفاة بن عليوة عام 1934 خلفه عدة بن تونس، الذي أعطى للطريقة العليوية صبغة جديدة، فأنشأ مدرسة التربية والتعليم عام 1944، وجمعية الشبان العلويين عام1936 [7]. و كذلك جمعية أحباب الإسلام عام 1948، والتّي انخرط فيها الكثير من الأوروبيين وهي وسيلة للدعوة الإسلامية في صفوف الأوروبيين–حسب عدة بن تونس[8]– كما أعاد عدة بن تونس إصدار جريدة "**لسان الدين**" عام 1936م، ثم "**الذكرى**" عام 1954، والتي توقفت عام 1958.

يعد الشيخ بن عليوة من المشاركين في التحضير لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م[9]، لكنه انشق عنها مثله مثل غيره من الطرقيين في عام 1932م،فأنشئوا" **جمعية علماء السنة**" في ديسمبر عام 1932م، برئاسة المولود بن الصديق الحافظي الزاهري، وأسسوا معها "نادي الإخلاص" وصحيفة سميت أيضا بـ"**الإخلاص**" لم تستمر مدة طويلة ،أما أعضاء "**جمعية علماء السنة**" فهم كل الذين يؤيدون "**العقيدة المذهبية السنية**"، ضد "**العقيدة المذهبية الوهابية**"، وهي التهمة الموجهة للإصلاحيين، وقد حدد المولود الحافظي أهدافها بالقول: "إنها دينية وأخلاقية، على أساس المذاهب الأربعة وأصول الفقه وأصول التصوف وأصول الدين على عقيدة الأشعري والماتريدي[10]، وقد حلت نفسها عام 1935م وأسس أيضاً الاتجاه الطرقي الصوفي "جمعية الزوايا والطرق الصوفية" في عام 1937[11]، ثم ولدت بعدها "جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية"عام 1939م، والتي أصدرت جريدة "الرشاد كلسان حال لها[12].

ولكي نتعرف أكثر على الاتجاه الصوفي، (الطرق الصوفية) علينا النظر إليه من خلال الإصلاحيين الذين كانوا في صراع دائم معهم ،وبلغ هذا الصراع أوجه في الثلاثينيات من القرن 20م. ويصل في بعض الأحيان إلى درجة الشتم والسب، ونشأت عدة صحف لدى الجانبين مهمتها مقارعة الآخر[13]. ويختفي وراء هذا الصراع عدة عوامل منها:

– انتماء الاتجاهين الصوفي الطرقي والإصلاحي إلى نفس المرجعية الفكرية، وعادة ما يكون الصراع على أشده بين توجهات تنتمي إلى مرجعية فكرية واحدة.

– الصراع حول السلطة والنفوذ في المجتمع وما يدره ذلك عليها من مكاسب وأموال وبخاصة الطرقيين منهم، ويعترف الإبراهيمي بذلك فيقول:" إنّ محل النزاع بيننا وبينكم هو هذا العامي، نريد أن

نحرره من استعبادكم ونطلقه من أسركم وتريدون أن يبقى عبدا تستغلون خراجه، ولا يستقيم لكم هذا منه إلا بجهله وغفلته، فأنتم تجهدون في تجهيله وتضليله"[14].

ويوجه الطرقيون نفس الاتهام تقريبا للإصلاحيين فيقولون عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إنها" الملحدة ، المدجلة باسم الإصلاح الديني لتهديم الدين وبالعلم لمجرد الظهور ولانتزاع الحظوة الشعبية بقصد انتزاع القيادة الدينية من أصحابها ،حبا للسيطرة وجمع الأموال"[15].

– اعتقاد الإصلاحيين أنّ ممارسات الطرقيين، تعطي صورة مشوهة عن الإسلام وتنفر الجزائريين منه، خاصة خريجي المدارس الفرنسية، يقول الإبراهيمي :"فأي الفريقين أصدق تعبيرا عن محاسن الإسلام، وأحسن تصويرا لفضائله في نفس الأجنبي؟ نحن بأقوالنا أم أنتم بأفعالكم؟

ويشير إلى توظيف الإدارة الاستعمارية لهم لضرب الإسلام، وتصوير الجزائري المسلم بأّنه همجي، ومتخلف لا يستحق إعطاءه الحرية" ألا تدرون أن هناك محاضرات تلقى وخطباً يتلى، وكتباً تطبع وتنشر وجمعيات تقوم بجمع ذلك، كل ذلك للطعن في الإسلام بكم وبأفعالكم واتخاذكم حجة عليه، وغايته من كل ذلك، حمل العالم المتحضر على احتقاركم، واعتباركم من الهمج الرعاع ... فما أنحسكم على الإسلام"[16].

يحمل الإبراهيمي الطرقيين والمحافظين، مسؤولية انتشار الإلحاد فيقول:" من الأسباب التي مكنت للإلحاد في نفوس الشباب المتعلمين مجانية علماء الدين المجاهدين لهم، ونفورهم منهم، ولهذا فإنّ القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد وينطبق نفس الأمر على التبشير المسيحي"[17].

– توظيفهما في الصراعات السياسية والانتخابية: يقول عبد الرحمن بن العقون – وهو من الطرقيين– لكّنه ذو نزعة وطنية استقلالية ومناضل في حزب الشعب الجزائري ثم الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية بأّن:" كلا الفريقين متورطان بصفة أو بأخرى في المعارك الانتخابية، فكان يختفي وراء الإصلاحيين نواب شباب كابن جلول في البداية ثم فرحات عباس، والدكتور سعدان، أّما النواب المقربون من الإدارة الاستعمارية فيختفون وراء الطرقيين، وكل طرف منهما هدفه تحقيق مكاسب انتخابية لا غير"[18].

نشير إلى أّن البعض، من الاتجاهين الطرقي والإصلاحي، قد التحقا على حد سواء بحزب الشعب، ثم الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية، وأصبحوا يصوتون لصالح الاستقلاليين[19].

– الصراع بين المدينة والريف، إنّ الصراع بين الطرقيين والإصلاحيين هو في العمق صراع بين المدينة التّي يسيطر عليها الإصلاحيون، والريف الذّي كان تحت سيطرة الطرقية والمرابطين، لمدة طويلة قبل أن تدخلها الفكرة الإصلاحية والاستقلالية فيما بعد[20]، وقد كان سكان الأرياف يرون في سكان المدن بأّنهم تغربوا، وهي نفس التهمة التي ألصقها الطرقيون بالإصلاحيين، يقول على البوديلمي من الطريقة العلوية بتلمسان :"بأّن العلويين لا يختلفون كثيرا عن الإصلاحيين، وما يؤاخذونه على الآخرين، هو استعدادهم التام للتغريب"[21].

انتقلت أغلب الطرق الصوفية بخطابها، من المقاومة العسكرية، إلى المقاومة الثقافية والسياسية، وهذا في بدايات القرن العشرين. ويظهر هذا الانتقال جلّيا وواضحًا في اعتمادها على الصحافة، بحيث أسست صحفا وأعطت لها أسماءًا مختلفة، وبدأت تشكل لها منابرًا لإظهار موقفها من القضايا المطروحة في تلك الفترة، ومع وجود سلطة الاحتلال الفرنسي، وما خلفه من أشكال الاضطهاد والحرمان بحق الجزائريين، وأعلن محاربته لكل المقدسات الهوياتية والوطنية والدينية والثقافية والاجتماعية، التي تمّيز بها المجتمع الجزائري عبر العصور.

2- تحول أشكال خطاب الطريقة العلوية في مقاومة الاستعمار الفرنسي في بداية القرن العشرين:

انفردت الطريقة العلوية، وتميزت عن باقي الطرق، باعتمادها أساليب المقاومة التّي تشكلت ضمن تيارات الحركة الوطنية، حيث تنوعت هذه الأساليب، وهي في الأساس مقاومة سياسية وثقافية بوسائل مختلفة، كتأسيس الأحزاب والجمعيات والنوادي والصحف...الخ، فتشكلت اتجاهات مختلفة، مّيزها أسلوب خطابها، وموقفها من الممارسات الاستعمارية الفرنسية في تلك الفترة، بحيث كان للطرق الصوفية عامة والطريقة العلوية خاصة، موقف يمّيزها من الوجود الاستعماري بالجزائر ولبعض القضايا المطروحة آنذاك .

والطريقة العلاوية هي أحدث الطرق الصوفية عهدًا، وآخرها تأسيساً، وأكثرها دقة وتنظيما، فقد استعملت منذ تأسيسها أحدث وسائل الاتصال العصرية، وأحسن الأساليب النظامية في نشر العلم، وهداية الناس والدعوة إلى الإسلام، وبث تعاليم الطريقة ومبادئها كإصدار الجرائد، وطبع الكتب وتنظيم الملتقيات وإلقاء المحاضرات وإنشاء النوادي، والجمعيات للدفاع عن الإسلام والدعوة إليه داخل الوطن وخارجه[22].

أصدر الشيخ العلاوي رحمه الله، أول صحيفة بعنوان" **لسان الدين**" سنة 1923م، ومّما جاء في مقالها الافتتاحي : " ما أحوج الأمة إلى من يجبر ما انصدع من كسرها، ويجمع ما تشتت من شملها ، وبالأخص، أمة الجزائر التي نحن من أفرادها فإّنه مّر عليها حين من الدهر أو نقول دهر طويل، وهي على ما هي عليه من الدعة والسكون ، لا تحس من نفسها في كل ساعة، إن لم نقل في كل حين، إلا تحليلا في أجزائها ،وتفريقاً في موادها كأنها ما خلقت إلا للتلاشي، والاضمحلال، وأنها إذا دامت على هذه الحال ،وسارت حسب هذه المنوال كما نرى، لا قدر الله فلاّبد وأن ينتهي بها السير إلى نقطة يعبرون عنها، بخسران الدنيا والآخرة ،ذلك الخسران المبين .

ثم أصدر الشيخ العلاوي صحيفة البلاغ الجزائري سنة 1927م، وكانت مواضيعها دينية واجتماعية متنوعة، بالإضافة إلى مقالات وقضايا تمس واقع المسلمين، ولها علاقة بالإسلام كقضية التجنيس التي شنت عليها جريدة البلاغ حربًا، لا هوادة فيها.

وقد تحدث عن هذه الصحيفة، المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني فقال:"وقد كانت جريدة البلاغ الغراء، وهي لسان الزاوية العلاوية، رغبت في جمعية العلماء النظر في أحوال الاحتفالات التي

تقع على بعض الأضرحة ،ويحصل بها من اختلاط النساء بالّرجال ،وغير ذلك مما شأنه أن يفتك بالأخلاق ويحط بالسمة القومية والدين في آن واحد"[23].

ومن بين الوسائل التي تستعملها الطريقة العلاوية في نشر أفكارها الإصلاحية ،مطبعتها القائمة بمدينة مستغانم بطبع مختلف الرسائل، والنشرات، والكتب الدينية باللغتين العربية والفرنسية، والمطبوعات الموجهة للأجانب.

وزيادة على كتاباته الحفية، ومحاضراته التوجيهية، كان ابن عليوة ينظم الشعر، ويكتب في الفلسفة والدين، وقد نشر بعض أعماله أثناء حياته في تونس، وسوريا ويصفه أوغسطين بيرك، بأنه سيد القلم والحرف، وبأنه كان خطيبا مؤثرا. وسماه أيضا (مبشًرا حديثا) يجمع (الثقافة الإسلامية والانضباط الأوروبي). و يبدو أن ابن عليوة، كان مؤمناً بفكرة الجامعة الإسلامية، تحت غطاء جزائري، وبدلا من طرح مذهبه خلال منظمة اجتماعية دينية، كما فعل الإصلاحيون استعمل ابن عليوة الطريقة الجزائرية القديمة ،خلق جمعية (طريقة صوفية)، باسمه الخاص مع إنشاء زاوية وطقوس وتعاليم لهذه الطريقة الصوفية.

وبناءً على رأي بيرك ،فإنّ ابن عليوة قد نادى بالوحدة الإسلامية، بغض النظر عن السلالة أو الشيع. وقد أبقى صلات وثيقة مع زعماء الجامعة الإسلامية والقومية العربية، وكانت جريدته تحتوي على بعض المقالات لهؤلاء الزعماء، بما في ذلك مقالات مع عبد العزيز الثعالبي، والأمير شكيب أرسلان السوري.

شجب ابن عليوة معاملة الفرنسيين للجزائريين كسلالة ناقصة، واضطهادها للنظم العربية، وقد هاجم كلا من البعثات التبشيرية والشيوعية في الجزائر، كما هاجم الحضارة الأوروبية المادية، والخطة الفرنسية لتجنيس الجزائريين.

كان ابن عليوة يعتقد انه يستطيع أن يحارب الحكم الفرنسي، بالطريقة الجزائرية، التي كانت خلال القرن التاسع عشر (أي الطريقة والصلات السرية والنظم الدينية)، بينما كان العلماء الآخرون يعتقدون أن وقت الطريقة انتهى، وأن طريقة التنظيم الحديث قد أصبحت ضرورية، ولكن ابن عليوة قد نما شيئا فشيئا محافظا، بينما كان العلماء يحاولون أن يسايروا الزّمن.

وعن المنزلة التي تحظى بها الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري، وتأثيرها فيه، روحيا وماديا، نجد الأستاذ عبد الرحمن بن العقون، يولي الاهتمام والمتابعة لأوضاع الطرقية في المجتمع الجزائري، ويبرز مكانتها بقوله: " من الحقيقة التاريخية ، أنّ الطرقيين يتمتعون بنظرة خاصة سواء في نظر الشعب أو في نظر الحكومة الفرنسية ،فمن الناحية الشعبية لا زال لهم المكان الخاص والمحترم، ولا زالوا يعتبرون الرؤساء الدينيين في القطر الجزائري كله، فزواياهم التي كانت من العصور القديمة ما زالت الملجأ الوحيد للفقراء والمحرومين، ولطلبة العلم والمعرفة لم تبرح تتمتع بالمقام الأول بالرغم

من ظهور المؤسسات النظامية والدروس العلمية المتفتحة، ورؤساؤها ما زال لهم مقام القيادة الاجتماعية والسلطة الروحية وحتى الزمنية ، لا زالت تؤهلهم للنفع والضر إذا أرادوا"[24].

تفرعت الطريقة العليوية عن الشاذلية الدرقاوية، وهي تنسب إلى الشيح أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي المتوفى عام 1934، بعدما أخذ الشيخ ابن عليوة المبادئ العلمية، والتصوف عن الشيخ محمد البوزيدي، وتصدر زاويته الدرقاوية من بعده في مستغانم ، استقل وأسس بها زاوية خاصة به عام 1910م ، كما أسس زوايا أخرى في معسكر وغليزان ووهران والجزائر وزواوة[25].

بخلاف الجمعيات الصوفية الأخرى، استعمل الشيخ بن عليوة وسائل حديثة لنشر أفكاره وتعاليمه، فقد اشترى مطبعة للزاوية[26]. وأنشأ صحفا كانت تنشر نشاطه، وتدافع عن الزّوايا ضد مخالفيها ومنتقديها، منها الصحيفة الأسبوعية "**لسان الدين**" . وأهمها أيضا الصحيفة الأسبوعية "**البلاغ الجزائري**"، التي اهتمت بشؤون الجزائر السياسية والوطنية وأيدت الجامعة الإسلامية واليقظة الوطنية.

كما دافع الشيخ ابن عليوة عن اللغة العربية، ووقف ضد الاندماج والتجنيس بالجنسية الفرنسية . وضد التقاليد والعادات الأوروبية، وضد الحركات المعادية للأديان كالشيوعية، ولجأ الشيخ ابن عليوة إلى الرسائل أيضا، لنشر آرائه وهي تتضمن قضايا التصوف[27]، والعبادات، وقصائد الشعر، ونسب إليه منها كتاب "مفتاح الشهود في مظاهر الوجود"، وكتاب "المنح القدوسية".

و عرف على الشيخ ابن عليوة، أنه ساند في البداية الحركة الإصلاحية ، وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ثم انضم إلى حركة منفصلة عنها، وهي جمعية علماء السنة عام 1932م، والتّي انتهت في نفس فترة وفاة الشيخ عام 1934م، و بفضل هذه الرسائل، وغيرها انتشرت العليوية انتشارا سريعا وواسعا، وشاع أمرها في بلدان المغرب العربي، وحتى في السنغال ومدغشقر وآسيا وغيرها.

وعن دور الصحافة، ووظائفها في المجتمع في تلك الفترة نجده يقول:" لا يفوت الصحافة أن تخوض عباب السبق في استجلاب ما ينفع أمتها، ورفع ما يضر بها ومهما كانت تشعر بشعور قومها، وتعمل برغائب أمتها، فحقيق بها أن تعتبر الصحافة هي الأمة ،والأمة هي الصحافة ."[28]

ولقد كانت للطريقة العلوية عدة صحف، تعتبر فضاءً لتجليات الخطاب الصوفي، نلتمس فيها تنوع المواضيع التي عالجت فيها قضايا المجتمع ،خلال المرحلة الاستعمارية ولقد كان للخطاب الصوفي الطرقي، مظاهر التميز والتحول منذ بدايات القرن العشرين، مع ظهور الحركة الوطنية، وتياراتها المختلفة، ولقد كانت له مواقف واضحة من بعض القضايا.

ظهرت المقاومة السياسية والثقافية في خطاب الطرق الصوفية عامة، وخطاب الطريقة العلوية خاصة، التّي تميّزت وانفردت بانفتاحها على اكتساب الطرق العصرية في مقاومة الاستعمار الفرنسي، ومن هذه الطرق والوسائل اعتمادها الصحافة، وتأسيس الجمعيات والنوادي وإنشاء مطبعات، وهو

أسلوب جديد في المقاومة الاستعمارية، اعتمدته تقريبا جل تيارات الحركة الوطنية في بدايات القرن العشرين، بالإضافة إلى تأسيس الأحزاب السياسية والقيام بمظاهرات سلمية ورسائل احتجاج...الخ.

كان الصراع الفكري واضحاً بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والطرق الصوفية في تلك الفترة بسبب الاختلاف في ممارسات الشعائر الدينية أساساً، وفي التوجهات التّي اعتمدها كل تيار في عملية الإصلاح الاجتماعي، والمواقف المتباينة من القضايا المطروحة في تلك الفترة وفي ظل السلطة الاستعمارية، التّي كان لها الدور الأكبر في استثمار هذه الخلافات الهامشية، وتحويلها إلى اختلافات إيديولوجية، ساهمت في تفكيك عامل الوفاق الوطني، مما سهل على الاستعمار عملية الاحتواء والتدجين.

استثمر الشيخ مصطفى العليوي الصحافة وجعلها منبرًا خطابيا صوفيا، ولقد كانت الجرائد والمجلات التي أسسها، فضاءً للمقاومة الثقافية والاجتماعية والسياسية دافع من خلالها عن التصوف كفكر، والإسلام والعربية والهوية، والموروث الثقافي للمجتمع الجزائري، كتب عن التجنيس بالجنسية الفرنسية وعن سياسة الإدماج، التي نادى بها بعض تيارات الحركة الوطنية، أنشأ زوايا لتعليم القرآن الكريم واللغة العربية وعلوم الدين.

3-الطريقة العلوية وتوظيف الصحافة في مقاومة الاستعمار الفرنسي:

نستعرض في هذا المجال، ونحن نتحدث عن دور الصحافة الطرقية في إظهار الفكر الصوفي و مواقفه عن نموذج لصحيفة أسستها الطريقة العلوية، ونتتبع مقالاتها من خلال تسلسل السنوات، لنقف عند كل سنة ونناقش موضوع مقالاتها، لنستنتج أهم القضايا المطروحة والوقوف على خطاب المقاومة السياسية والثقافية للطرق الصوفية، وتوضيح أدوارها في تلك الفترة التاريخية المتميزة. وتعتبر صحيفة البلاغ الجزائري، ثاني صحيفة أسستها الطريقة العلوية بعد صحيفة لسان الدين، ولقد تأسست سنة 1926م.

ونستعرض في هذه الصحيفة، عدد المقالات التي نشرها الشيخ العلاوي، مرتبة حسب السنوات وهي :

السنة	مجموع الأعداد	عدد المقالات
1927-1926	32	36
1928	22	18
1929	21	18
1930	04	04
1931	13	13
1933	10	10
المجموع	102	99

هذا الجدول مأخوذ من كتاب بعنوان: التربية والمعرفة في مآثر الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، وهو مجموعة مقالات نشرته جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية ، بمناسبة أشغال ملتقى الذكرى العاشرة لتأسيس الجمعية المنعقد في :16-17-18 أكتوبر 2001 بدار الثقافة لمدينة مستغانم ،ص276.

والجدول التالي مفصل للمقالات الصادرة في البلاغ الجزائري (مقالات الشيخ أحمد العلاوي)

- مقالات الشيخ العلاوي في جريدة البلاغ سنة 1926-1927:

رقم	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصدور
1	إنّ في هذا لقوم عابدين (مقال الافتتاحية)	1	1926/12/24
2	الإسلام	2	1926/12/30
3	يريدون أن يجعلوا المتقين كالفجار	2	1926/12/30
4	أسلوب التذكير	3	1927/01/05
5	الإسلام وتعاليمه	5	1927/01/21
6	حرية النشر	6	1927/01/28
7	بيان يحتاج إليه	8	1927/02/11
8	كيف نتوخى الإصلاح	14	1927/03/25
9	لا يترك الناس من أمر دينهم شيئًا إلا....	15	1927/04/01
10	القضاء الإسلامي بالقطر الجزائري	16	1927/04/15
11	رزء عظيم ومصاب جسيم (وفاة محمد بن جعفر الكتاني)	17	1927/04/22
12	كتاب مفتوح إلى لجنة تعديل الأحكام الفقهية بعاصمة الجزائر	18	1927/04/29
13	البلاغ الجزائري	19	1927/05/06
14	الأعراض وحرمتها	20	1927/05/13
15	من المؤسف أن لا يدرك المسلم ما حل بدينه	21	1927/05/20
16	هكذا نظموا جموعهم وهكذا رتبوا صفوفهم	22	1927/05/27
17	واجبات الزعماء	23	1927/06/03
18	ثورة الأفكار	24	1927/06/10
19	ما أحوج المؤمن لأخيه في عصر ضعف فيه الإيمان	25	1927/06/24
20	أبناء الإسلام مالكم لا تشعرون	26	1927/07/01
21	هل يجمل بأبناء المسلمين ما نراهم الآن فاعلين	27	1927/07/08
22	هل تسمح لنا تعاليم العصر بالبقاء على الإسلام	28	1927/07/15
23	الإسلام يطلبنا	29	1927/07/22
24	فطال عليهم الأمد	30	1927/07/29
25	الإصلاح، ومن ذا الذي يدري معنى الإصلاح؟	32	1927/08/12
26	إلى كتاب أمتنا ومفكريها	34	1927/08/26

27	حديث للأستاذ العلاوي مع مكاتب غيليزان	34	1927/08/26
28	الآثار النبوية... أين هي الآن؟ وإلى أين تصير؟	37	1927/09/23
29	الإسلام متبوع وليس بتابع	38	1927/09/30
30	كتاب من الأستاذ العلاوي إلى الأستاذ أبي يعلى	39	1927/10/07
31	بيان لا لبس فيه، وإيضاح يعتمد عليه	39	1927/10/07
32	الإصلاح والمصلحون	42	1927/10/28
33	خبر مفزع (وفاة مولاي يوسف)	46	1927/11/25
34	درس الشيخ العلاوي بعاصمة الجزائر	46	1927/11/25
35	قولية السلطان (مولاي محمد)	47	1927/12/06
36	إلى علمائنا	51	1927/12/29

- مقالات الشيخ العلاوي في جريدة البلاغ سنة 1928:

رقم	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصدور
1	ما هكذا تورد الإبل	52	1928/01/05
2	إلى زعماء الأمة ومفكريها	53	1928/01/20
3	حرية القول في الإسلام	56	1928/02/03
4	إلى الوطنيين من أبناء أمتنا	57	1928/02/10
5	فشو البغاء وضروب المخازي	58	1928/02/17
6	تبعة الصحافة والصحافيين	59	1928/02/24
7	شأن المرأة المسلمة والسفور	63-62	17و1928/02/23
8	ماذا عسى يعمل العامل	65	1928/04/13
9	الدين كفيل بسعادة الدارين	69/68	1928/05/11
10	لماذا نمشي إلى الوراء	70	1928/05/18
11	الاندفاع في الكتابة ونقل الحديث من غير روية	72	1928/06/08
12	تعليق البلاغ	75	1928/06/29
13	الإيمان وما أدراك ما الإيمان	82	1928/08/17
14	البلاغ وما يقال في البلاغ	83	1928/08/24
15	من أجوبة الأستاذ العلاوي	83	1928/08/24
16	السم في الدسم	85	1928/09/14
17	اهتداء إلى الدين الحنيف	98	1928/12/14
18	رابطة الإيمان إلى إخواننا أهالي تلمسان	98	1928/12/14
19	اهتداء أحد المبشرين وأجوبة الأستاذ العلاوي	116 117 118	-04/25 05/03 1928/05/10

– مقالات الشيخ العلاوي في جريدة البلاغ سنة 1929:

رقم	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصدور
1	اليوم أكملت لكم دينكم وجواب الأستاذ العلاوي	119	1929/05/17
2	إلى نواب الأمة	119	1929/05/17
3	إلى خطباء المساجد	120	1929/05/31
4	إلى مشايخ التصوف وأرباب الزّوايا	121	1929/06/07
5	إلى أهل الثورة وأغنياء الأمة	123	1929/06/21
6	بشارة عظيمة ومحاورة جسيمة	124 125 126	06/28 07/05 1929/07/12
7	التفاتة لأهل الأريحية من رجال قسنطينة	128	1929/07/26
8	جواب عن سؤال موجه إلى الأستاذ العلاوي	130	1929/08/09
9	نظرية إجمالية إلى النيابة الأهلية	131	1929/08/16
10	من أجوبة الأستاذ العلاوي	132	1929/08/23
11	على علماء الأمة ورجال الملة	132	1929/08/23
12	من أجوبة الأستاذ العلاوي	133	1929/08/30
13	جوابه في معنى كلمة (فصل الخطاب)	133	1929/08/30
14	كيف السبيل؟....الأمر بالمعروف	135	1929/09/13
15	جواب عن قوله تعالى: "رب أرني كيف تحي الموتى"	135	1929/09/13
16	القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد	134	1929/09/08
17	من أجوبة الأستاذ العلاوي	137	1929/10/04
18	أي شيء نريده من المسلم يا ترى	139	1929/10/18
19	من أجوبة الأستاذ العلاوي	143	1929/11/15
20	ليس من شأن الأفكار أن تندفع في كل تيار	144	1929/11/22
21	التدريس بمساجدنا وشأن المدرسين	146	1929/12/06
22	هكذا تبدل الأرض غير الأرض والسماوات	147	1929/12/13
23	إننا لمحتاجون لبث دعاية إسلامية	148	1929/12/30

–مقالات الشيخ العلاوي التي نشرت في جريدة البلاغ الناطقة باسم الطريقة العلوية 1930 :

رقم	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصدور
1	إننا لمحتاجون لبث دعاية إسلامية	150	1930/01/03
2	شعور الأمة بواجبها نحو دينها وقوميتها	156	1930/03/14
3	يجب على الأمة أن تعرف المنافقين من أفرادها	189	1930/11/21
4	أخطار التبشير على العالم الإسلامي وبإفريقيا الشمالية على الخصوص	190	1930/11/28

- مقالات الشيخ العلاوي في جريدة البلاغ سنتي 1931 و1933:

رقم	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصدور
1	جاءت الشرائط وأصبح الدين غريبًا	202	1931/01/13
2	ليس التبشير غاية استعمارية	195	1931/01/09
3	هل أصبح المسلمون على شك من أمرهم	196	1931/01/16
4	كل مصيبة يتسلى عنها إلا المصيبة في الدين	197	1931/01/23
5	الإسلام يشكو لله شجوه	207	1931/04/17
6	هل يشعر المسلمون بما يراد بهم؟	208	1931/04/24
7	مراتب العبادة	212	1931/05/12
8	موقفك أيها المرشد	211	1931/05/22
9	واجب المسلم أن يهتم بشؤون المسلمين	212	1931/05/29
10	إليكم يا رجال العلم ما يجب عليكم	214	1931/06/12
11	شأن من لا يتقي النجاسة	225	1931/09/11
12	رويدك يا زمان فقد أتعبتنا	233	1931/11/06
13	الخلافة والمسلمون	234	1931/11/13
14	هل نستطيع إصلاح ما أفسده الدهر؟	289	1933/01/27
15	نحن في حاجة إلى تحقيق دعوى الإسلام	294	1933/05/23
16	حقائق ناصعة	296	1933/06/09
17	نهضة الجزائر الإصلاحية	295	1933/06/02
18	مصيبتنا في بعض علمائنا عظيمة	304	1933/08/21
19	ليس الشأن أن يذهب منا الأمل	311	1933/09/29
20	القرآن الكريم ووجوب المحافظة عليه	326	1933/12/08
21	سوء الظن بالمؤمنين وآثاره السيئ على جماعتنا	322	1933/12/22
22	الأمراض الفتاكة في جسم الإسلام والمسلمين	293	1933/05/19
23	الاحتفال بالمولد النبوي الشريف	299	1933/06/30

4- دور الشيخ العلوي في الإصلاح الاجتماعي :

تعتبر الصحافة في نظر الطريقة عامل مهم، في عملية النهوض والإصلاح الاجتماعي، فعند افتتاحية صحيفة البلاغ الجزائري العدد 1 في 24 ديسمبر 1926، نجد خطابها العام يقول: " بما أن الصحافة تعتبر بكتابها ، كما أنّ الأمة تعتبر بصحافتها ، فالصحافة هي المرآة المجلوة لتمثيل ذات الأمة، وهي الواسطة بينها وبين حكومتها، وهي المنبر العام لخطبائها ، وهي السائق لأفكارها".

كتب (أغسطين بيرك) دراسة مطولة في (المجلة الإفريقية)، تحت عنوان: (متصوف عصري) استغرقت ما يقارب (85 ص)، يقول بيرك:" كان الشيخ أحمد العلوي دائم الظمأ لمعرفة الأديان الأخرى ، ويبدو أّنه على علم واسع بالكتب المقدسة"، ويقول في مكان آخر من نفس المجلة:" لقد ظل حتى النهاية من عشاق البحث الميتافيزيقي، ودرس المسائل ما لم يخض فيها ،ومن الفلسفات ما لم يستخلص لبها".

فهذه الشهادات من باحث ومفكر أوروبي كبير، عرف الشيخ العلوي شخصيا ، كافية في الدلالة على مكانته العلمية وسعة إطلاعه، مكنته من القيام بنهضة إصلاحية واسعة النطاق ،وعلى مستويات مختلفة ولتحقيق رسالته الدينية والاجتماعية والأخلاقية ، اتخذ الصحافة منبرًا لبث أفكاره فأنشأ أّولا مطبعة، ثم أصدر جريدة (لسان الدين) سنة 1923، وغرضها الأهم خدمة الدين بأسلوب خصوصي وغايتها، "أن تمكن هذا الدين بصفته الخالصة، من الشوائب فيها بين الأجانب فضلا عن أبناء الملة" (المقال الافتتاحي) عدد1-1923/11/1. لأن الشيخ لم يكن مجرد كاتب صحفي فحسب، وّانما كان مفكراً عميقاً وزعيماً إصلاحياً يسعى إلى تجديد الإسلام، وصيانة تعاليمه، ويسعى فوق ذلك لكي يسترد الدين ما فقده من حيث العمق فكتب الشيخ قائلا:" لو نطق الإسلام لاشتكى إلى الله، ولأحصى كل الشرور التي حلت به "(من جريدة البلاغ ع:207 سنة 1931) ، لذلك شرع في نشر سلسلة من المقالات، تحت عنوان (حالة مسلمي الجزائر) في اثنتي عشرة حلقة، حلل فيها حالة الإسلام والمسلمين في الجزائر، وما وصل إليه من تدهور وانحطاط، فدعا إلى تطهير الإسلام من الشوائب، والنهوض بالمجتمع الجزائري الذي وصل إلى درجة من الضعف، والجهل والانحلال الخلقي . ومن ثم كانت جريدة (لسان الدين)، شديدة اللهجة في نقدها اللاذع للأوضاع الاجتماعية والدينية، مما أدى بالسلطة الاستعمارية إلى إصدار قرار التوقيف بعد صدور (13 عددًا) فقط.

كان على الشيخ العلاوي، أن يواجه في تلك الفترة حملة صحفية أخرى أخذت تهاجم نشاطه، وتتهمه بالبدع والخرافات والأوهام، وتندد بالطرق الصوفية إجمالاً مستهدفة طريقة الشيخ خصوصًا ، فكان لاّبد من التصدي لهذه الحملة المعادية له ولطريقته خاصة، والطرق الصوفية الأخرى عمومًا فأنشأ جريدة (البلاغ الجزائري) سنة (1926-1948م) وغايتها أنها صحيفة علمية، إرشادية دفاعية صدر العدد الأول منها في :1926/12/24)بمستعانم ، وابتداءً من سنة 1930 انتقلت إلى عاصمة الجزائر، حيث أنشأ لها الشيخ العلوي مطبعة عصرية وصدر العدد (154) بتاريخ: 1930/02/21 بالعاصمة، وكانت تهتم بالجانب الديني والاجتماعي، وبفضل موادها الغزيرة ومقالاتها الكثيرة فإنّ أغلبها موجهة للدفاع عن الدين الإسلامي، والرد على خصومه والانتصار للتصوف الإسلامي، والطرق الصوفية التّي تعرضت لهجمات كثيرة، متهمة إياها بالدجل والشعوذة والبدع، كما نددت (البلاغ) بقضية الاختلاط والبغاء، وكشفت خطط المبشرين وخطورتهم على الإسلام والشباب

الجزائري، إلى جانب وقوفها ضد حركة التجنيس وقفة صارمة، وشنت هجومًا ضد الإلحاد وبالرجوع إلى أعداد الجريدة، ندرك مدى مساهمة الشيخ العلاوي في مد صحيفته، بسيل من المقالات والدراسات والتعاليق، دون توقف رغم الأشغال والأعمال الكثيرة التي يضطلع بها، والمسؤوليات الجسام التي وقف نفسه على النهوض بها، ومن خلال الوقوف على مقالات الشيخ في جريدة البلاغ، تبين مدى تنوع موضوعاتها فكتب عن التصوف والعقائد وشؤون المسلمين، وتناول أيضا الجانب الاجتماعي والتربوي والسياسي... في تلك الفترة.

ففي التصوف والدفاع عن تعاليمه، كتب سلسلة من المقالات نشرت في البلاغ ،وجمع بعضها وطبع منها :(رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف)، ردًا على رسالة المرأة في إظهار الضلالات) لعثمان بن مكي، وسلسلة أخرى من المقالات بإمضاء (الناصر المعروف) ردًا على المقال المنشور بمجلة الشهاب (ع174) لأحد المدرسين بالحرم النبوي (الشيخ الهلالي)، كما نشر سلسلة أخرى في ثلاث حلقات (ع69-70-71) في مشروعية الذكر بالاسم المفرد (الله)، جمعها فيما بعد الشيخ محمد الهاشمي بعنوان "القول المعتمد" ،وطبعها بدمشق سنة 1931م. كما نشر مجموعة من الأجوبة والرسائل في موضوعات شتّى، جمع بعضها الأستاذ علي بن محمد الغماري، تحت عنوان (أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل)، وطبعت سنة 1941م. منها رسالة في (18صفحة) رد فيها الأستاذ العلاوي على المقال المنشور بمجلة الشهاب عدد (166و168)، بعنوان (بدعة الطرائق في الإسلام) للشيخ العربي التبسي، وغيرها من الأجوبة والرسائل العلمية والتاريخية.

سايرت الطريقة العلوية، التغيرات والأساليب المعتمدة في مقاومة الاستعمار الفرنسي منذ بداية القرن العشرين، واعتمدت المقاومة الثقافية والسياسية، من خلال إنتاج وسائل هذه المقاومات والمتمثلة أساساً في الصحافة، والجمعيات والنوادي الثقافية، وإنشاء زوايا تعليمية في مناطق مختلفة من الوطن.الخطاب الطرقي الصوفي، اتهم بدخوله سياسة التدجين مع الاستعمار، وخاصة من طرف التيار الإصلاحي، المتمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سياسة الاحتواء حكم مبالغ فيه في حق التيار الطرقي، وإن كان هناك تيار موازي صنعه الاستعمار، متمثلا أساساً في ظهور شيوخ عملاء دخلاء، لضرب واستئصال جذور الطرق الصوفية المقاومة، والتي حتمت عليها الظروف، الانتقال بخطابها من القوة بالسيف والجهاد، إلى جهاد من نوع آخر، هدفه المحافظة على الدين الإسلامي، والعربية والهوية الثقافية، والتاريخية للمجتمع الجزائري، وهو الجهاد الثقافي والسياسي.

خاتمة:

أنتجت الطرق الصوفية عامة، والطريقة العلوية خاصة، خطابا صوفيا معاصرًا يتماشى والتغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية، التي تمّر بها المجتمع الجزائري، في بداية القرن العشرين،

وفي ظل السيطرة الاستعمارية الفرنسية، حاول هذا الخطاب الصوفي، أن يجدد في أساليبه محاولاً الخروج من دائرة التقليد، وتبني خطاباً معاصرًا في وسائله ومضامينه وأهدافه وحتى مشايخه .

عبّر الخطاب الصوفي العلوي، عن تميزه وانفتاحه على مجتمعه، وأ صبح خطاباً صوفياً مجددًا وابن وقته، حيث امتاز بدخوله المقاومة السياسية، من خلال وقوفه ضد تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية، ومحاربته ظاهرة التبشير بالمسيحية في أوساط الجزائريين، ودعى إلى التزام الشخصية الإسلامية الجزائرية، من خلال التميّز الثقافي والفكري للفرد الجزائري.

*** قائمة المراجع :**

(1) من هذه الدراسات نذكر :

– Rinn , Marabouts et Khouan , Etude sur l'Islam en Algérie, ed jourdan,Alger,1884.

– Depout (Octave) et coppolani(Xavier) les confréries religieuses musulmanes (publie sous patronage du CX,gi,pules Cambon) , ed jourdan,Alger,1897.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج7،ص163–164.

(3)Berque Augustin, un mystique moderniste le cheikh Benalioua, Revue Africaine, Vol79, Annee1936, p691-776.

(4) جريدة لسان الدين،عدد12 في:2–3–1923.

(5) أنظر حول محاولة الاغتيال: حماني أحمد،صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس،ج1،دار البعث،قسنطينة،1984،ص61–68.

(6) أعادت المطبعة العلوية بمستغانم نشره عام 1990.

(7)جريدة لسان الدين،عدد30، نوفمبر1936.

(8) ظهرت هذه الجمعية كرد على "جمعية شباب المؤتمر الإسلامي" الذي أنشأه الأمين العمودي في العام نفسه وهو تابع لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(9) جريدة البلاغ ،عدد (11–6–1931).

(10) جريدة الإخلاص،عدد16 في16 شعبان1351ه الموافق ل ديسمبر 1932،رئيسها هو المولود بن الصديق الحافظي.

(11)جريدة النجاح،عدد 10 في 10 جانفي 1937،رئيسها مصطفى القاسمي.

(12) خطب فيها بن العقون عند تأسيسها ودعا إلى إبعادها عن السياسة.

(13) من صحف الإصلاحيين نجد: الشريعة،الصراط،السنة، المرصاد، الجحيم.

(14) جريدة السنة،عدد 7(22–5–1933) ،نقلا عن: أثار الإبراهيمي،ج1،ص49.

(15) ابن العقون،ج2،ص133.

(16) جريدة السنة،عدد 9(5–6–1933) ،نقلا عن: أثار الإبراهيمي،ج1،ص 48–49.

(17) من كتاب سجل مؤتمر العلماء المسلمين الجزائريين المنشور في أثار الإبراهيمي،ج1،ص131–134.

(18) ابن العقون،ج1،ص407.

(19) ابن العقون،ج2،ص ص: 189-190.

(20) حدد سيميان عدد المنخرطين في الطرق الصوفية في الجزائر عام 1910 بحوالي 190 ألف أغلبهم من البدو وسكان الأرياف.

((21) Martigny Johan cheikh Al Alawi Documents et témoignages , ed les Amis de l'islam ,Paris 1984,P100.

(22) صلاح مؤيد العقبي،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر(تاريخها ونشاطها)،دار البراق ،لبنان،2002،ص263.

(23) المرجع نفسه،ص268.

(24) عبد الرحمن بن العقون، التاريخ القومي والسياسي،ج2،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،ص181.

(25) أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،ج4،ص127.

(26)محمد الهاشمي بن بكار،كتاب مجموع النسب،الجزائر 1961،ص169.

(27)Berque, un mystique modernité : de cheikh Benalioua,revue africaine ,Vol79/2 ,Annee 1936,PP 691-776.

(28)جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافية الصوفية ،المعرفية في مآثر الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، مستغانم 2001،ص285.